انفتاح النسق اللساني
دراسة في التداخل الاختصاصي
د. محيي الدين محسب

قراءة: د. وليد أحمد العناتي

جامعة البتراء - الأردن

Anati_waleed@hotmail.com

استهلال: اعتمدت في قراءتي هذا الكتاب على طبعته الأولى التي صدرت عن دار فرحة للتوزيع والنشر في مصر عام 2003 م، ثم تبين لي بعد ذلك أن دار الكتاب الجديد المتحدة بلبنان قد أعادت نشره عام 2008، وقد وَصَفَتْ هذه الطبعة أيضًا بأنها الطبعة الأولى.

ولقد حفزني ذلك، أمانةً وتثبتًا، إلى أن أضاهي النسختين، فوجدتهما متطابقتي المضمون، وإن اختلف الشكل. وقد تمثلت اختلافات النسخة الثانية عن الأولى في النقاط التالية:

- تحويل الحواشي من هوامشَ ختاميةٍ إلى هوامشَ داخليةٍ سُفْليَّةٍ.
- ترتيب المراجع حسب اسم الشهرة (العائلة) بدلاً من الاسم الأول.
- إضافة فهارس الأعلام.
- تفصيل العنوانات الفرعية في فهرس محتوى الكتاب .

غاية الكتاب ومنطلقاته: يقصد الكتاب منذ البداية إلى الدلالة على منزلة اللسانيات في شبكة المعارف والعلوم الحديثة؛ وإنما يكون ذلك ببيان وجوه تعالقها بالعلوم الطبيعية والطبية والنفسية المختلفة؛ ذلك أن تعالق اللسانيات بعلم الحياة قد أنتج فروعاً لسانية متخصصة تسمى "اللسانيات البيولوجية" و"اللسانيات

العصبية"، كما انتهى تعالقها بعلوم النفس إلى بروز "اللسانيات النفسية". وهي تخصصات، على ما ترى متضافرة.

وهكذا فإن منطلق الكتاب هو فكرة تداخل الاختصاصات العلمية وتجلياتها في الدرس اللساني الحديث.

منزلة الكتاب: يغلب على ظنّي أن الكتاب ينطوي على فوائدَ علميةٍ متعددة، ولعل هذا ما حفزني على قراءته غير مرة والتهيؤ لهذه المراجعة، وبيان هذه الفوائد في أنه:

- يركّز موضوعه في قضيتين محددتين، هما: علاقة اللغة بعلم الأحياء وعلم الأعصاب، وعلاقة اللغة بعلم النفس. وهو يستنفد _في تناوله وجوه هاتين العلاقتين- عدداً كبيراً من مسائل إنتاج اللغة وفهمها، أكانت هذه المسائل بيولوجية عصبية أم نفسية، بل إنه يتجاوز ذلك إلى ما يَعْرِضُ من أمراض قد تعترض عمل العناصر الحيوية أو العصبية أو النفسية عند إنتاج اللغة وفهمها.

- ينطوي على عدد كبير من المعلومات المستقاة من تجاربَ علميةٍ تطبيقيةٍ أُجريت في اللسانيات الغربية والدراسات النفسية والتشريحية المتقدمة التي لم تُعْرَف في ثقافتنا، وهكذا فإنه يقدم لنا فرصة ممتازة للاطلاع على منجزات الآخرين في حقل التطبيقات اللغوية النفسية والحيوية.

- يقدم اختباراتٍ فعليةً أُجْرِيَت لفحص عدد كبير من المفاهيم اللسانية المرتبطة بإنتاج اللغة واكتسابها وإدراكها، وأظهر ما يكون من ذلك الاختبارات التي أجريت لقياس مدى صدق مفاهيم المدرسة التحويلية كالكفاية والأداء، وفطرية اللغة، والقواعد التحويلية، **وحسب ما انتهى علمي فإن هذا الكتاب هو أول كتاب بالعربية يقدم هذه الاختبارات المهمة.**

- يتضمن معلومات محورية مفصَّلة لم تُعْطَ حقَّها من التفصيل والشرح في اللسانيات العربية، وأبرز هذه المعلومات ذلك الحوار السجاليّ التاريخي الذي قام بين "**تشومسكي**" و"**سكنر**" وهو السجال الذي ترتبت عليه نتائج مِفصلية في الدراسات النفسية واللسانية؛ إذ آذن بأفول علم النفس السلوكي واللسانيات البنيوية التي

ارتبطت به، وفي الوقت نفسه أعلن عن بروز علم النفس المعرفي "الإدراكي" واللسانيات التحويلية.

- يتضمن أفكاراً جديدة من شأنها تغيير رؤى لسانية كانت سائدة وشائعة في اللغة العربية، ومن أهمها فكرة "الملاءمة الوظيفية" وهي فكرة تنقض الادعاءات التي ترى أن النطق وظيفة ثانوية للأعضاء التي تقوم بها.

وهكذا فإن هذا الكتاب ينطوي على قيمة علمية مهمة، ويمثل إسهاماً معرفياً جيداً في نقل اللسانيات الغربية إلى العربية، وهذا بحد ذاته ليس أمراً هَيِّناً.

بنية الكتاب: يقع الكتاب في مائة وخمسٍ وثمانين صفحة تتوزع على مقدمة قصيرة، ومدخل تمهيدي، ودراستين طويلتين، وخاتمة قصيرة.

العرض التفصيليّ

المقدمة: تنطوي مقدمة الكتاب على بيانٍ بغاية الكتاب، ومنتهى مقصوده، أن يدلَّ على تحققات موجة تضافر العلوم في النظرية اللسانية الحديثة، متخذًا من تعالق اللسانيات بعلم النفس وعلم الحياة مثالين دالَّيْن على ذلك[1].

كما تنطوي المقدمة على تأسيس نظري مهم يوضِّح المقصود بالمصطلحات الرئيسة التي سيتناولها في الكتاب، ويتخذ من تعريفات "ديفيد كريستال" في قاموسه " اللسانيات والصوتيات" معتَمَداً رئيساً لهذه المصطلحات وبيان ذلك في أنَّ:

- **اللسانيات البيولوجية**: أحد الفروع النامية في اللسانيات، حيث يقوم بدراسة الشروط البيولوجية المسبَّقة للنمو والاستعمال اللغويين لدى الإنسان، وذلك من خلال وجهات نظر كل من تاريخ اللغة في الجنس البشريّ، ونمو اللغة لدى الفرد..... وتشمل الموضوعات محل الاهتمام المشترك بالنسبة لعلمي الأحياء واللسانيات: الانتقال الوراثي للغة، والنماذج الفسيولوجية والعصبية لإنتاج اللغة، والمتوازيات التشريحية بين الإنسان والكائنات الأخرى، وتطور الأشكال المرضية للسلوك اللغوي. (ص7)

- **اللسانيات العصبية:** أحد فروع اللسانيات يعني بدراسة الأسس العصبية لنمو اللغة واستعمالها لدى الإنسان، ويحاول أن ينشئ نموذجاً لتحكم المخ بعمليتي الكلام والسمع. (ص7)
- **اللسانيات العيادية (الإكلينيكية):** يستخدم هذا المصطلح أحياناً للدلالة على تطبيق النظريات والمناهج اللسانية والنتائج الوصفية على تحليل الحالات والأوضاع التي تنطوي على اضطرابات في اللغة.
- **اللسانيات النفسية:** أحد فروع اللسانيات يعنى بدراسة الارتباط بين السلوك اللغوي وعمليات الفكر النفسية التي تكمن خلف هذا السلوك.

المدخل التمهيدي: يعرضُ المؤلف في هذا المدخل التمهيدي كيفية بروز موجة العلوم المتداخلة المتضافرة، ويركز على الاتجاهات الفلسفية الداعمة لهذا التضافر. وتراه يتخذ من هذه المقدمة التأسيسية مسوغاً نظرياً لتداخل اللسانيات مع العلوم الأخرى ولا سيما البيولوجيا وعلم النفس. وقد تناول هذا التداخلَ الاختصاصيَّ النظر في ثلاث قضايا رئيسية هي: تعريف اللغة، وأصل اللغة، وحدث الاتصال الكلامي.

1- تعريف اللغة: وينطلق المؤلف هنا من أن اللغة ظاهرة اجتماعية تحتل مركز النشاط الاجتماعي الإنساني، وينتهي إلى أن اللغة خصيصة إنسانية وهبها الله للإنسان؛ وأنَّ نظم التواصل التي تستعملها الحيوانات لا تمثل نظاماً متكاملاً للتواصل، لذلك فهي تقصِّر عن أنْ تكون نظاماً لغوياً يضارع لغة الإنسان.

وينوه المؤلف بانشغال كثير من الميادين العلمية بدراسة اللغة ومحاولة الوصول إلى تعريف دقيق لها، ذلك أنَّ كل علمٍ ينظر إلى اللغة من منظوره الخاص، فاللغة عند الفلاسفة وسيلة التعبير عن الفكر وأداتُهُ الكاشفة، وهي عند المَناطقة تمثيل لمنطق التفكير عند الإنسان، وأما علماء الاجتماع فَيُعْنَوْنَ بها من حيث إنها ظاهرة اجتماعية، وبها يُمْكِنُ التعرف على كثير من خصائص المجتمع الناطق بها، وأما علماء النفس فينشغلون بالعمليات النفسية والعقلية المتحكمة في السلوك اللغوي إنتاجاً واستقبالاً.

وأمام هذا التموقع المعرفي الذي تحتله اللغة فإنه يصعب الوصول إلى تعريف جامع مانع يشمل هذه الميادين كلها.

ويرى المؤلف محيي الدين محسب أن البحث في **(ماهية اللغة)** قد انتهى في اللسانيات الحديثة إلى ما يسمى (خصائص النظام)، وتصل هذه الخصائص عند (هوكيت) إلى ست عشرة خصيصة، وعند (جون لايونز) ثلاث عشرة خصيصة، وتختار (جين أتشيسون) ثماني خصائص؛ وفي هذا الكتاب يختار المؤلف أن يعرض لاثنتي عشرة خصيصة مستفيداً من توضيحات (لايونز)إياها، وهو في أثناء عرضها يذكر ما تناوله العلماء من وجود خصائص قريبة منه عند الحيوانات، وهذه الخصائص هي (ص15- 22):

1- **الاعتباطية:** وتعني أنه ليس ثمة علاقة طبيعية أو تمثيلية بين المفردات (الدالّ) ومعانيها(المدلول)، أما الاعتباطية في التركيب فتعني أنه لا علاقة طبيعية أو منطقية تفسر التركيب اللغوي في أي لغة؛ فلا تفسير منطقياً لتقدم الموصوف على الصفة في العربية أو لتأخرها عنه في الإنجليزية.

2- الإبداعية: وهي تعني، حسب ما جاء في الكتاب، الخاصية القائمة في النظام اللغوي التي تمكن الناطقين باللغة من إنتاج عدد غير محدود من العبارات وفهمه، بما في ذلك العبارات الجديدة كلياً؛ أي التي لم يسمعوها من قبل.

3- التقطيع المزدوج، وهو يوضح هذه الخاصية وفق رؤية اللساني الفرنسي (أندريه مارتينيه).

4- **التمايز:** ويقصد بذلك أن عناصر النظام اللغوي قائمة على الاختلاف المطلق، إذ نميز هذه العناصر بمقابلتها بغيرها من العناصر التي تنتمي إلى المستوى نفسه، فصوت الهاء في (هرب) هو هاء لأنه ليس (ض في ضرب)، ويرى أن هذا المفهوم امتداد لمفهوم القيم الخلافية عند (دي سوسير).

5- **الدلالية**: أي أن العلامات اللغوية لها دلالات تنتهي إلى المعنى والإفهام وليست الدلالية قائمة على معاني المفردات وحسب، فهي تتجاوزها إلى النفس والعقل والمحيط الخارجي.

6- **الاستبدالية:** وهي خاصية تمكننا من التعبير عن أمور وأحداث تنتمي إلى زمان ومكان بعيدين عن زمان التحدث ومكانه.

7- **التبادلية:** أي تبادل المواقع، إذ يمكن للمرسِل في الحدث اللغوي أن يتحول إلى مستقبل والعكس صحيح، دون أي مشكلة.

8- **الاسترجاع التام:** وتعتمد هذه الخاصية على خاصية (التبادلية)، إذ إن المتكلم يراقب حديثه، فهو يمثل مرجعاً يحتكم إليه في تصحيح زلاته، أو تغيير عباراته.

9- **إمكانية التعلم:** وتعني أنه يمكن لأي إنسان، بصرف النظر عن جنسه أو لونه، أن يتعلم[2] في مرحلة الطفولة أي لغة وعلى درجة واحدة من الإتقان، على أن يكون متمتعاً بصحة الجهاز النطقي بما فيه الأذن، وأن يعيش في محيط يوفر له مدونة لغوية تحفِّز قدراته الفطرية.

10- **الانعكاسية:** أي أن الإنسان قادر على الكلام باللغة عن اللغة.

11- **الانتقال الثقافي:** وبالرغم من القول بفطرية اللغة وغريزيتها فإن المحيط الثقافي يؤدي دوراً مهماً في انتقال اللغة وما يترتب عليها من سلوكيات لا تكتسب إلا بالممارسة الاجتماعية.

12- **المراوغة:** أي يمكن استخدام اللغة في الخداع والتضليل أو الكذب.

2- حدث الاتصال الكلامي: ولعل أهمية الحدث التواصلي أنه يجمل العناصر الضرورية التي ينبغي توافرها حتى يتم التواصل بين أبناء المجتمع الواحد، ولا تخرج هذه العناصر في مجملها عن: المرسِل والمستقبل والوسيط الفيزيائي والوسيط اللغوي المشترك بينهما. إضافة إلى الرسالة وما يترتب عليها من عمليات تكوين الرسالة وتفكيكها ثم فهمها. ولا شك أن الحدث الكلامي لا يتوقف على إنتاج الكلام أو استقباله وحسب، بل تتدخل فيه عوامل خارجية غير لغوية كالسياق الاجتماعي، وطبيعة العلاقة بين المتخاطبين، وجنس المخاطَب وعمره، والمناسبة التي يجري فيها الحدث التواصلي، ثم كيفية تفاعل المستقبل مع الرسالة[3].

ثم يعرض المؤلف لإنتاج الكلام من الناحية الوظيفية، إذ ينقل رأي (ديفيد كارول) القائل بأن ثمة أربع آليات ينتهي تآزرها إلى إنتاج الكلام، وهي:

1- **آلية التنفس:** وتتمثل في انطلاق الهواء من الرئتين وما يتبع ذلك من نشاط عضلات التنفس.

2- **الآلية الحنجرية:** وتتمثل بأوضاع الوترين الصوتيين أثناء مرور الهواء بينهما، وما ينتج عن ذلك من خصائص صوتية، إضافة إلى حركات عضلات الحنجرة.

3- **آلية التقطيع الصوتي:** وهي متعلقة بحركات الشفتين والفك الأسفل واللسان، وما يترتب على حركات هذه الأعضاء واقترابها أو ابتعادها.

4- **آلية القشرة المخية :** وتتمثل في تفاعل مناطق محددة في المخ البشري، إذ إن لكل منطقة مخية وظيفةً جزئيةً في إنتاج الكلام، وينتهي تضافر هذه المهام الصغيرة إلى إنجاز المهمة الكبرى؛ وهي الكلام.

وظاهر أن هذه الآليات تمثل جهد المرسِل وإسهامه في الحدث التواصلي، وأما دور المستقبِل المتمثل في تفكيك الرسالة فإنه أمام احتمالات عدة، على ما ترى (أيتشيسون)، وهذه الاحتمالات هي (ص29):

أ- إما أن تكون عملية وضع الرسالة مختلفة كلياً عن عملية تفكيكها.

ب- وإما أن تكون عملية التفكيك هي عملية الوضع بشكل عكسيّ.

ج- وإما أن تكون عملية التفكيك هي نفسها عملية الوضع، أي أن المفكك يعيد تكوين الرسالة لنفسه بالطريقة ذاتها التي سيقوم بها لو كان هو المتكلم.

د- وإما أن تكون عملية التفكيك تشبه، جزئيا، عملية الوضع، وتختلف عنها أيضاً جزئياً.

ويخلص من هذه الاحتمالات إلى أن الاحتمال الرابع هو الأقرب إلى الحقيقة.

أما (فراي) فإنه يؤكد أن عملية التواصل، من ثمَّ التفاهم، تحدث لأن النظام اللغوي الذي ولَّد الكلام هو نفسه الذي استقبله، أي أن ثمة نظاماً لغوياً مشتركاً

بين المتكلم والسامع، ويقوِّي ذلك أننا لا نفهم لغاتٍ أخرى غير لغتنا، بافتراض أننا لم نتعلمها، بالرغم من سماعنا إياها من الناطقين بها.

ثم يعرض لرأي (لينبرغ) حيث يقول: " إن أول الأشياء التي يتعلمها الطفل هي المبادئ وليست الوحدات المفردة: مبادئ التصنيف وإدراك الأنماط". (ص30)

وينتهي محسب إلى أن ثمة عوامل متعددة تتدخل في سرعة تفكيك الرسالة وإنجازها مهامها، ومن أهمها (ص31):

1- طبيعة التركيب اللغوي الذي صيغت به الرسالة، إذ تتفاوت سرعة تفكيك الرسالة بين تركيب جملي وتركيب آخر.

2- طول الجملة أو قصرها.

3- تعقيد الجملة أو بساطتها، فالجملة الواحدة أسهل تفكيكاً من الجملة المتفرعة التي تتضمن جملاً أصغر منها مرتبطة بها.

3- أصل اللغة: ورغم أن هذا الموضوع بات مطروحا في اللسانيات الحديثة[4] إلا أن محيي الدين محسب يتناوله تناولاً متوازناً لا هو مختصر ولا هو مسرف، وأحسب أنه لم يكن أمامه بُدّ من تناول هذا الموضوع، لا سيما أنَّ ثمةَ نظرياتٍ تفسر نشأة اللغة تفسيراً بيولوجياً يتناول الجوانب الوراثية للطاقة اللغوية.

وهو يتناول بإيجاز النظريات التي تحدث عنها "فيلهم فونت" وهي: نظرية المحاكاة ونظرية الاختراع ونظرية المعجزة ونظرية التطور[5]. كما يعرض لنظريات (أوتو يسبرسن) الدنماركي في نشأة اللغة.

ونراه يتوقف عند نظرية (دايموند) التطورية؛ ومفادها أن اللغة تطورت بمواكبة تطور الجنس البشري، ويقدم (دايموند) بعض الحقائق المستقرأة من واقع تاريخ اللغات، ومن أهمها أنه **كلما اتجهت اللغة من مرحلة إلى مرحلة تالية نقصت نسبة عدد الأفعال فيها مقارنة بنسبة الأسماء. (ص35)** ويمثل لذلك بجدول مفصل من تاريخ اللغة الإنجليزية بدءاً من تشوسر إلى عام 1850م! ثم يستعين دايموند بعلم وظائف الأعضاء لتفسير اكتساب أصوات قبل أخرى؛ حيث يشير إلى أن الأصوات

الأولى والأسهل هي تلك المقاطع التي تتكون من صامت واحد تليه حركة، وأن هذه الصوامت عادة ما تكون انفجارية.

ويأخذ المؤلف على هذه النظرية المآخذ التالية:

1- أنها لا تخلو من الافتراضات والاحتمالات بالرغم من أنها قد تفسر بعض الظواهر اللغوية الإنسانية القديمة.

2- أنها تنطلق من مبدأ أن اللغات الإنسانية البدائية لابد أن تكون "بسيطة" بالضرورة، في تركيبها الصوتي والصرفي والنحـــوي والدلالي، على خـــلاف ما توصلت إليه الدراسات الإنسانية في لغات المجتمعات المنعزلة من أنها على درجة من التعقيد والدقة[6].

3- أنها تحمل في طياتها القول أن لغة الإنسان البدائي تشبه بعض أنساق الاتصال الحيواني، كما هو الحال عند الشمبانزي.

وينتهي المؤلف إلى عرض محاولات الاستعانة بعلم الحفريات ومعطياته للتوصل إلى مَنشأ اللغة الإنسانية، وتركز هذه المحاولات على دراسة تجاويف الجماجم البشرية الموغلة في القدم؛ فقد وُجِدَ أن ثمةَ فروقاتٍ في حجم المخ البشري مع تطور الزمن، وهذه الزيادة تنعكس على قدرات الإنسان الفكرية ومن ثمَّ قدراته اللغوية. كما دُرِسَت أشكال الفك وتجاويف الفم في محاولة للوصول إلى الفروقات بينها وتَبَيُّن أثر ذلك في النطق.

ثم اتجه البحث في علم "الوراثة اللغوية" إلى دراسة العلاقة بين صناعة الأدوات عند الإنسان القديم وظهور اللغة من ناحية أخرى[7]! ويقدم لذلك أمثلة عديدة تحت هذا المنحى.

وينهي المؤلف هذا التمهيد الطويل بمدى تقدم "علم الوراثة اللغوية" ويدلل على ذلك بتعدد المؤتمرات التي عقدت لمناقشة قضاياه.

الفصل الأول[8]:

فطرية اللغة بين الأساس البيولوجي والنظرية اللسانية: وغاية هذا الفصل أن يجلي الإسهام البيولوجي في تطوير النظرية اللسانية في النصف الثاني من القرن العشرين المنصرم، وقد جاء هذا الفصل متضمناً المباحث التالية:

أولاً: نظرة تاريخية.... نموذجان عربيان.

ثانياً: التكوين العضوي لجهاز النطق وملاءمته الوظيفية للكلام.

ثالثاً: المخ والوظائف اللغوية.

رابعاً: التضمينات النظرية.

ويبتدئ المؤلف المبحث الأول بالإشارة إلى المسح الذي أجراه (أوتو ماكس) للتطورات التاريخية لمسألة الأسس البيولوجية للغة منذ الفراعنة وحتى القرن العشرين، منبهاً إلى أن هذا المسح لم يُشِرْ ولو إشارة عابرة إلى جهود العلماء المسلمين في هذه القضية، ولذلك فإن (محسب) سيستدرك عليه باستعراض نموذجين عربيين تناولا هذه المسألة تناولاً نافعاً، هما الجاحظ والفارابي.

أما تناوله لرؤى الجاحظ في المسألة فيبدؤها بنص متوسط يلخص وجهة نظره في وجه العلاقة بين القدرة اللغوية والخصوصية التكوينية الإنسانية، ولعل أهم ما جاء في هذا النص (ص53- 54):

- كفاءة جهاز النطق الإنساني، وفيها يتناول العيوب النطقية.
- الفترة الحاسمة لاكتساب اللغة، وفيها يتناول صعوبة تغيير العادات النطقية، وأثر اللغة الأم في اللغة المتعلمة.
- المقارنة بين أنساق التواصل الإنساني والتواصل الحيواني، ويرى أن أهم هذه الافتراقات تتمثل في: أن الأصوات الحيوانية غير مفيدة، وأنها محدودة الاتصال، وأن طبيعة الإدراك الإنساني تغلب طبيعة الإدراك الحيواني، وأن منبع هذه الغلبة يكمن في الخصائص النوعية للعقل الإنساني.

أما الفارابي فينطلق من مقولة أساس، مفادها أن انبثاق اللغة لدى الإنسان يمثل حتمية طبيعية. ومن هذا المنطلق يؤسس الفارابي لنظريته في كيفية نشأة اللغة

الإنسانية. وهي تقوم على مبدأين أساسين هما: طبيعة التكوين الخَلْقِيّ، وفطرية القيام بالجهد الأسهل.

وبناء على هذين التصورين يبني الفارابي تصوره لمراحل نشأة اللغة، وهذه المراحل هي: الاتصال الإشاري، ثم استخدام التصويت (وهو يبدأ بأصوات مفردة ثم يميل إلى التركيب والتعقيد)، ثم تنظيم المعطيات الحسية، وهي عملية بيولوجية.

وينتهي محسب إلى القول: إن مراحل تطور اللغة عند الفارابي تمثل عموميات كونية[9] لأنها تنطلق من أساس فطري، أو من طبيعة التطوير البيولوجي للإنسان وتطور تفاعله مع عالم المدرَكات، وهذا التفاعل عند الفارابي قائم على عمليتين هما: إدراك التشابه، وإدراك التباين. (ص58)

على أن تركيز الفارابي على الجانب الفطري لم يمنعه من العناية بالجانب الاجتماعي للظاهرة اللغوية، حيث يتحول ما يسميه (الاعتياد) إلى التحكم في السلوك اللغوي للجماعة اللغوية المعينة.

ثانياً: التكوين العضوي لجهاز النطق وملاءمته الوظيفية:

ويستهل (محسب) هذا المبحث بالإشارة إلى الفكرة السائدة في الدراسات الصوتية واللسانية التي ترى أن النطق إنما هو وظيفة ثانوية تقوم بها أعضاء الإنسان على هامش وظائفها الحيوية الرئيسة، ويرى أن نظرية (الملاءمة الوظيفية) بدأت تحل محلها، وبيان هذه النظرية أن عملية النطق وظيفة حيوية لا تختلف عن غيرها من عمليات البلع والتنفس وتنقية الهواء، وأن أعضاء النطق مهيأة لتقوم بهذه الوظائف بالقدر نفسه من الأهمية والمركزية، ولذلك فإنه من الخطأ تفسير الكلام بأنه (وظيفة إضافية)[10]

وهكذا فإن فكرة "التعدد الوظيفي" حلت محل فكرة "الوظيفة الإضافية" كما يرى (لينبرغ)، لأن فكرة الوظيفة الإضافية تعجز عن تفسير كيفية عمل الآليات البيولوجية المتحكمة في الخصائص الكيفية للعمليات النطقية، ويرى (سكوفيل) أن ثمة خصائص كيفية تدعم فكرة "التعدد الوظيفي"، وهي (ص62):

- القدرة على التحكم في الهواء من الرئتين بشكل ثابت، وبطريقة إيقاعية منتظمة.
- التركيب الداخلي للحنجرة.
- موقع الحنجرة وإتاحة المرونة الحركية للسان.
- عضلات الوجه.
- توزيع الأعصاب في عضلات الحنجرة والوجه والفم بواسطة المخ.

ويتناول المؤلف هذه الخصائص بالتفصيل منتهياً إلى القول: "ولعله يتضح لنا من كل ما سبق أن ثمة دلائل واضحة في تركيب الحنجرة وموقعها، وتركيب الفم واللسان والأسنان، تشير إلى نوع من الاستعداد الخلقي للكلام". (ص67).

ثالثاً: المخ والوظائف اللغوية:

ولعل هذا الموضوع هو الحاسم في قضية فطرية اللغة؛ إذ ينطوي على سؤال رئيس مفاده: **إلى أي مدى يبدو المخ البشري مبرمجاً لعملية الكلام؟** ثم يتبع ذلك بالقول إن تفرد الإنسان باللغة وعلاقة ذلك بالمخ قد نوقش من خلال فرضيتين:

- الأولى تحاول إرجاع السبب في ذلك إلى حجم المخ الإنساني.
- الثانية تحاول إرجاع السبب في ذلك إلى نسبة حجم المخ إلى حجم الجسم.

ويظهر للمؤلف أنه من المناسب تناول هذه القضية من منظورين رئيسين هما:

1- القول بالتخصص الوظيفي لنصفي المخ وعلاقة ذلك باللغة.

2- القول بوجود فترة حاسمة لاكتساب اللغة.

أما في **المسألة الأولى** فإنه يستعرض عدداً من التجارب العملية التي حاولت تحديد الوظائف التي يقوم بها جانبا الدماغ الأيمن والأيسر، بدءاً بتجارب (مارك داكس) ومن تلاه من المتخصصين، وأهم هؤلاء (بول بروكا)، وكان أهم ما انتهى إليه أن:

- النصف الأيسر من الدماغ غالباً ما يكون المسؤول عن اللغة.
- الإصابة المبكرة للنصف الأيسر تحول السيطرة المخية إلى النصف الأيمن.

ولقد أجريت العديد من التجارب قصد التحقق من المسائل المتقـــدمة وغيرها، ومن أهمها: اختبار الصوديوم أميتال، واختبار السماع المزدوج، وقياس الجهد الكهربي المثار.

ويمضي المؤلف في حشد عدد من الدراسات التي انتهت إلى نتائج تدعم فكرة التخصص الوظيفي لنصفي الدماغ، على أنه ينتهي إلى أن ثمة سؤالين تتعلق الإجابة عنهما بقضية التخصص الوظيفي لنصفي المخ وعلاقة ذلك باللغة:

أول هذين السؤالين هو: **هل ثمة علاقة بين بنية اللغة ذاتها واختصاص هذا النصف أو ذاك بامتلاك الكفاءة في اللغة؟**

والثاني: **هل ثمة اختلاف في التخصص الوظيفي لنصفي المخ لدى الأشخاص ثنائيي اللغة أو متعدديها؟**

أما فيما يتعلق بالسؤال الأول فليس ثمة أدلة تشير إلى اختلاف البنى الصوتية أو التركيبية باختلاف التخصص الوظيفي لنصفي الدماغ، ويظل الاعتقاد الغالب أن سيادة النصف الأيسر على العمليات اللغوية مسألة بيولوجية عامة عند عامة البشر.

وأما السؤال الثاني فإن الرأي الغالب أنه ليس ثمة اختلافات بين أحادي اللغة أو ثنائيها في التخصص الوظيفي لنصفي المخ.

وأما المسألة الثانية (الفترة الحاسمة لاكتساب اللغة) فإن منطلقها أن ثمة ارتباطاً بين النمو اللغوي ونمو خلايا المخ، وبيان ذلك أن نمو المخ يؤدي إلى زيادة عدد خلاياه أضعافاً مضاعفة، وتستمر عملية النمو هذه _على ما يرى بعض العلماء_ إلى مرحلة البلوغ، وتسمى هذه المرحلة بالمرحلة الحاسمة لاكتساب اللغة، فإذا لم يتعرض في أثناء هذه المرحلة لمدونة لغوية فإنه سيكون من المتعذر عليه اكتساب اللغة.

وقد اخْتُبِرَتْ فرضية "المرحلة الحاسمة لاكتساب اللغة من خلال ما يلي (ص76- 82):

1- حالات أطفال العزلة (الأطفال المنعزلين عن أي تأثيرات لغوية).
2- حالات الإصابة المُخِّيَّة (الإصابة في أحد مراكز النطق في الدماغ).

3- اللكنة قبل سن البلوغ (في تعلم اللغات الأجنبية).

4- الفترة الحاسمة لاكتساب سلوك معين لدى كائنات أخرى.

ويظهر أن معظم الاختبارات التي أجريت أكدت وجود هذه الفترة الحاسمة لاكتساب اللغة، ذلك أن الأطفال الذين عُزِلوا عن المحيط اللغوي لم يتمكنوا من اكتساب اللغة اكتساباً سليماً، وعندما وُضِعوا في بيئات لغوية سليمة قَصَّروا عن اللحاق بمن يماثلونهم في السن، كما ثبت أن الإصابات العضوية في المخ أو أحد أجزائه قد خلفت عاهات لغوية متفاوتة بتفاوت حجم التلف المخيّ وموقعه. ثم ثبت أن من يتعلم اللغة الأجنبية بعد سن البلوغ يظل محتفظاً بلكنة لغته الأم.

ثم يمضي بعد ذلك متتبعاً أصول الفطرية في الدرس اللساني ولاسيما عند تشومسكي، وذلك من خلال أفكار ثلاثة:

أ- القول بالأساس الفطري للغة.

ب- القول بوجود عموميات لغوية.

ت- القول بتفرد خصائص التصميم اللغوي.

ويمثل الاتجاه الفطري اتجاهاً غالباً في اللسانيات الحديثة، وبيانه أن الطفل يولد مزوداً بجهاز فطري يهيئ له القدرة على اكتساب اللغة اكتساباً إبداعياً وخلاقاً، وهذه الملكة أو الموهبة الفطرية مشتركة بين جميع أبناء الجنس البشري، وتعرف هذه الموهبة الفطرية بجهاز اكتساب اللغة، أو (فرضية المحتوى) ومفادها: أن عقل الطفل يحتوي على قدر كبير من المعرفة النوعية باللغة. (ص89)

ويقدم الفطريون عدداً من الاستدلالات التي تدعم فكرتهم، ومنها (ص88- 93):

– أن الأطفال المولودين صُمَّاً، وهم لا يتعرضون لأي مؤثرات لغوية، يستطيعون ممارسة المناغاة كالأطفال الأسوياء حتى الشهر السادس، ثم يتحولون بعد ذلك إلى نوع من اللغة الإشارية.

– أن هناك تتابعاً منتظما للمراحل التي يمر بها الاكتساب اللغوي، وهذه أهم خصيصة للسلوك المخطط بيولوجياً.

– أن اكتساب الطفل اللغة لا يتم بتقليد الكبار، لأن لغة الكبار تتسم بعدد من التحويرات....، كما أن فكرة التقليد لا تصلح لتفسير الجانب الإبداعي في اللغة، كاستعمالِ الطفل جملاً جديدة لم يسمعها من قبل.

– أنَّ الملاحظة العامة تؤكد أن فهم اللغة يسبـــق إصدارها عند الأطفال؛ ولذلك فإنه كثيراً ما يرفض الطفل تقليد الكبار ويصر على أداء لغوي مختلف!

– أنَّ ما نسميه (القياسات الخاطئة) التي يقوم بها الأطفال في مراحل اكتساب اللغة تدل على فاعلية الآليات الذهنية الفطرية، فالخطأ يفسر هنا على أنه عدم اكتمال النظام اللغوي، فهو يقيس ما لا يعرفه على ما يعرفه، فإذا أنَّثَ (أحمر) على (أحمرة) فإنه لم يخطئ في التقليد ولكنه يقيس كلمة (أحمر) وتأنيثها على القاعدة المشهورة في التأنيث في العربية بإضافة التاء المربوطة، وما ذلك إلا لأنه لم يبلغ قاعدة التأنيث بالألف والهمزة.

أما فرضية العموميات اللغوية فإنها ترتبط - هذه الفكرة- بفطرية اللغة عند تشومسكي، ومفادها امتلاك الإنسان لآليات تفكير رياضية ومنطقية تتجسد في اللغات جميعا، وهي التي قادت تشومسكي إلى القول بتساوي جميع الأطفال في قدراتهم على اكتساب اللغة مهما كانت أصولهم أو أعراقهم، وتقترح نظرية تشومسكي ثلاثة أنواع من العموميات اللغوية، ويخرج من هذه العموميـــات ما يسميها العموميات العارضة، وهي تتعلق بالجوانب التاريخية للظاهـــــرة اللغوية، وأبرز أمثلة ذلك الظواهر المشتركة بين اللغات السامية.

أما العموميات التي تقصدها التحويلية فهي:

1- العموميات الصورية: وهي فئة محددة من العناصر البنيوية، كالوحدات اللغوية والمقولات اللغوية، التي تنتقي منها اللغات خصائصها البنيوية الخاصة.

2- العموميات الشكلية: وهي جوانب من البنية الشكلية التي تمتلكها مختلف أنماط القواعد والمداخل المعجمية في كل اللغات.

3- العموميات التنظيمية: وهي القوانين العامة التي تنظم قواعد التركيب النحوية وتحولاتها المتعددة.

أما المظهر الثالث من مظاهر تفاعل نظرية اللغة مع المعطيات البيولوجية فهو "خصائص التصميم"، وقد ناقشه المؤلف في التمهيد. على أنه ينوه بأن أبرز اتجاه يطرح لدراسة هذا الأمر الكيفي يتمثل في دراسة طبيعة التنظيم الداخلي للمخ ومحاولة اكتشاف بنياته التي لها علاقة باللغة، وهذا مجال "اللسانيات العصبية" و"اللسانيات المرضية".

وبعد أن يفرغ المؤلف من تناول "فطرية اللغة" عند البيولوجيين واللسانيين ينتقل للمقارنة بين " الفطريين" واللسانيين الاجتماعيين، وتنتهي المقارنة إلى أن (ص99- 102):

– الفطريين يرون أن المدخل الصحيح لبناء نظرية لسانية يكمن في تحديد أساس التمييز النوعي البيولوجي الإنساني، تحديد الآليات التي يعمل بها المخ الإنساني عندما ينتج اللغة ويستقبلها، أما الاجتماعيون فيرون أن المدخل الأنسب لذلك هو تحديد الكيفيات والآليات التي يشكل بها المجتمع نظامه، ضرورة دراسة اللغة في سياقها الاجتماعي، ويلخص هذا الفرق مفهوما الكفاية اللغوية عند تشومسكي والكفاية التواصلية عند (دِلْ هايمز).

– اللسانيين الفطريين يرون أن (الكفاية اللغوية) هي موضوع بحثهم، أما الأداء فهو مادة غير متجانسة لأنه يخضع لظروف كثيرة، كالنسيان أو الخطأ والاختلالات الذهنية....إلخ، أما اللسانيون الاجتماعيون فينطلقون من الأداء الفعلي في كل أبعاده الاجتماعية، إذ يمكن تنظيم الكلام في ضوء العلاقة بين البنى الاجتماعية والمتغيرات اللغوية.

– الفطريين يقولون إن الكلام مليء بالشذوذ النحوي، في حين يتساءل اللسانيون الاجتماعيون: ما معيار هذا القول؟ ذلك أن الدراسات تثبت أن 75٪ من الكلام يتألف من جمل صحيحة.

الفصل الثاني:

اللسانيات النفسية: من النموذج السلوكي إلى النموذج التوليديّ جاءت بنية هذا الفصل مؤلفة من:

- نبذة تاريخية تبين مسار معالجة اللغة في إطار علم النفس حتى السلوكية.
- إطار معرفي لبدايات النحو التحويلي التوليدي.
- تصور لكيفية تأثير النحو التوليدي في اللسانيات النفسية، انطلاقاً من تعريف موضوع اللسانيات النفسية، ثم اختبار صدق بعض المفاهيم التوليدية اتكاءً على تجارب اللسانيين النفسيين.

بدايات النحو التوليدي: إطار معرفي عام: يمكن القول إن صدور كتاب "البنيات التركيبية" لتشومسكي عام 1957 يمثل فترة حاسمة في تاريخ اللسانيات النفسية؛ إذ أعلن بقوة عن ظهور اللسانيات النفسية المعرفية (الإدراكية) وتقهقر الرؤى السلوكية في علم النفس واللغة.

ويشير الكتاب إلى فرق جوهري بين (بلومفيلد) البنيوي السلوكي و(تشومسكي) التحويلي المعرفي، ومفاده أن منهج البنيويين كان وصفياً تقريرياً وحسب، أما منهج تشومسكي فكان وصفياً تفسيرياً؛ ففي الوقت الذي اكتفت البنيوية فيه بتقديم وصف جامد للغة يشبه أن يكون جرداً لعناصرها فإن التحويلية تجاوزت ذلك إلى البحث في القدرات العقلية والذهنية المتحكمة في هذه التحققات اللغوية.

ثم يورد المؤلف رؤية (رادفورد) أحد شُرَّاح النظرية التوليدية التحويلية. وخلاصة هذه الرؤية أن اللغة هي مرآة العقل، ذلك أن دراسة اللغة دراسة مفصلة وعميقة توصلنا إلى فهم أفضل لكيفية قيام العقل الإنساني بإنتاج اللغة (ص124). ومن هنا يحدد رادفورد هدفي دراسة اللغة عند تشومسكي، وهما:

- تطوير نظرية عن اللغة.
- تطوير نظرية عن اكتساب اللغة.

يرى تشومسكي أن الخطوة الأولى لتطوير نظرية عن اللغة تتمثل في صياغة أنحاء معينة للغات المعينة على انفراد، وهي تسمى الأنحاء الخاصة، أما الخطوة الثانية فهي الانتقال من الأنحاء الخاصة للبحث عن وجوه الاتفاق بين هذه الأنحاء وصولاً إلى "الكُلّيات" المشتركة بين اللغات جميعاً، وهي المعروفة بـ "**النحو العام**" الكونيّ.

أما النحو الخاص فإنه يرتبط بالقدرات العقلية للناطق باللغة التي تمكنه من إنتاج اللغة وفهمها وإدراكها بطلاقة، وهي "**الكفاءة اللغوية**". وهي تشمل: القدرات التركيبية والدلالية والصوتيمية. (125)

ثم يمضي تشومسكي بعد ذلك في رؤاه العقلانية في تفسير اللغة ومعارضته الشديدة للرؤى السلوكية التي تجعل الإنسان والحيوان بمنزلة واحدة، منتهياً إلى أهم ما يميز النظرية التحويلية في تناولها لقضية المعرفة اللغوية وهي النزعة الإنسانية، ذلك أن القول بعقلانية اللغة وأصولها المعرفية ينفي عن الإنسان أن يكون كالحيوان اللاعقلاني، فالإنسان يمتلك عقلاً ولغة، أما الحيوان فليس له لغة ولا عقل.

ثم يمضي الكتاب في استعراض تطورات المفاهيم التحويلية، منتهياً إلى ثبت بأهم افتراقات المدرسة التحويلية عن المناهج التصنيفية (البنيوية) التي سبقته. وتتمثل هذه الافتراقات في الجدول التالي (ص136- 138)

وجه المقارنة	المناهج التصنيفية	التحويلية
الموضوع	موضوع الدراسة في المناهج التصنيفية هو مدونة محدودة من الأداءات اللغوية المحسوسة، وبذلك يكون النحو التصنيفي نحواً سلوكياً يقتصر على الأداء اللغوي المحسوس.	موضوع الدراسة في النحو التوليدي هو القدرة الذهنية، أي الكفاية اللغوية التي تمكن الإنسان من إنتاج وتفسير ما لا يتناهى من الأداءات اللغوية، وبناء على ذلك فإن النحو التوليدي نحو

		ذهني عقلاني في اختياره للموضوع.
الأهداف	الهدف الأقصى لأي نحو تصنيفي هو التفييئ، تقسيم العناصر اللغوية إلى فئات كبرى تنتظم الأداءات اللغوية.	الأهداف المحورية للنحو التوليدي هي الوصف والتفسير، وصف الكفاية اللغوية العميقة، وتفسير الخصائص الإشكالية للجمل.
التجريدات	لا يقدم مثل تجريدات النحو التوليدي، ويترتب على هذا أن تصنيف الأقوال، هنا، يأخذ في الاعتبار كل عامل يؤثر في أقوال المدونة؛ وبذلك فهو نحو تجريبي.	يجرد النحو التحويلي موضوعه في مفهوم الكفاية اللغوية، ووفقاً لهذا التجريد لا يدرس إلا عاملاً واحداً من العوامل التي تؤثر في نحوية الجمل وهو العامل النحوي، وبذلك فهو نحو عقلاني.
شكل النظرية	يأخذ النحو التصنيفي شكل نظام فئات من الأقوال، ويترتب على ذلك أن النحو التصنيفي يفتقد الجانب شبه القانوني الذي هو جانب نمطي بالنسبة للنحو التوليدي.	لكي يصل النحو التوليدي إلى أهدافه لابد أن يأخذ شكل نظام محدود من القواعد.
معايير الدقة	معايير الدقة المطبقة في القواعد التصنيفية ليست مصوغة في إطار مفهوم "الصدق"، فهذه القواعد في جوهرها وسائل لتنظيم مدونة من الأقوال، وبهذا الاعتبار فهي يمكن أن تكون دقيقة	المعيار الأساسي بالنسبة للنحو التوليدي هو معيار الدقة الوصفية، فالنحو التوليدي لابد أن يعطي وصفاً أو تمثيلاً حقيقياً

	في معايير البساطة والأناقة والاتساق الداخلي والجدوى.....إلخ، فكلما كان التقسيم الذي يقدمه النحو التصنيفي أبسط وأدق وآنق وأفيد....إلخ كان، عندهم، النحو الأفضل.	لمضمون الكفاءة اللغوية العميقة وتنظيمها.
المنهج	إن للنظرية اللسانية في المنهج التصنيفي هدفاً مختلفاً تماماً عن التحويليين، فليس هدفه وصف القدرة الذهنية العميقة لإنتاج اللغة وفهمها، وليس من هدفه أن يحدد نظاماً للعموميات اللغوية التي تشخص مفهوم اللغات الإنسانية الممكنة، إنما يهدف إلى تحديد سلسلة المناهج التي يمكن بها إنشاء قواعد نحوية لمدونات الأقوال، وبعبارة أخرى فإنها تهدف إلى تطوير نظام من الإجراءات لكشف التقسيمات الدقيقة لمدونات الأقوال. وهذه المناهج التصنيفية_ التي لابد أن تكون قابلة إلى أقصى حد ممكن للتطبيق آلياً_ تشمل وسائل التعيين والتجزيء وتقسيم الوحدات التي تتكون منها الأقوال.	تهدف النظرية اللسانية داخل النحو التوليدي إلى إعطاء وصف لقدرة ذهنية فطرية هي ملكة اكتساب اللغة. وهذا الوصف يُعطى في إطار عموميات لغوية تعين الخصائص الجوهرية للغات الإنسانية الممكنة، وهذا الوصف يعمل باعتباره أساساً لتفسير الخصائص الإشكالية لأنحاء لغات معينة.

ثم ينتقل الكتاب بعد ذلك لعرض أهم سجال تشهده اللسانيات النفسية، وهو السجال الذي ترتب على نتائجه انقلاب عميق في الدراسات اللسانية والدراسات

النفسية، إنه سجال تشومسكي و"سْكِنَر"، إنه سجال "البنيات التركيبية" و"السلوك اللفظي".

يبدأ المؤلف بعرض رؤى "سكنر" ثم انتقادات تشومسكي، وفيما يلي بيان موجز بأهم آراء سكنر في موضوع اللغة:

- يقوم كتاب سكنر على افتراضين مترابطين هما:

1- أن السلوك ينبغي أن يفسر في إطار قوانين المدخل/ المخرج، وهي القوانين التي تربط بين ما يدركه الكائن الحي والتحليل الوظيفي لسلوكه.

2- أن المتغيرات الطارئة لا دخل لها في تفسير السلوك، وبصفة عامة فإن الحالة الذهنية للكائن الحي ليس لها صلة في فهم ما يفعله.

وبناء على ذلك فإن سكنر يفرق بين علم النفس واللسانيات، فمدار اهتمام اللسانيات عنده هو القواعد التي تحكم نظام اللغة، أما مدار اهتمام علم النفس فهو المتكلم الفرد لتفسير بناء الحصيلة اللغوية ونموها وتطورها! (ص140) ولقد انتهت هذه المنطلقات السلوكية بـ "سكنر" إلى القول إن السلوك اللفظي إنما هو تجسيد للعمليات العامة التي تقوم بها الكائنات الحية، وعلى ذلك فلا فرق بين الإنسان والحيوان، وليس ثمة آليات مميزة للغة، لأنها ليست أكثر من حالة مركبة من إشراط المثير والاستجابة والتعزيز.

ويميز سكنر بين خمس مجموعات من الإشراطات الإجرائية للسلوك اللفظي، هي:

الطلب، والاتصال، والإجراء الصدوي (الترديد والمحاكاة)، والإجراء النصيّ، والإجراء ما بين اللفظي[11].

وينهي المؤلف عرضه لآراء "سكنر" بكلام (مارك ريتشل)[12]، وهو خلاصة مفادها أن سكنر " يعتبر أن الخصائص النوعية للنظام اللغوي تحدد مجموعة من الاحتمالات التي تقولب سلوك الفرد دون أن يتطلب ذلك الافتراض وجود قدرات نوعية مقابلة عند هذا الفرد، فالسلوك اللفظي للشخص ينسجم مع القواعد التي تحافظ عليها الجماعة اللغوية عن طريق إواليات (ميكانزمات) انتقاء التصرفات.

هذه الإواليات التي لا تنحصر بالجانب اللغوي، والتي تلعب المحاكاة من بينها دوراً أساسياً".

نقد تشومسكي: تمثل مراجعة تشومسكي النقدية لكتاب سكنر "السلوك اللفظي"[13] مرتكزاً رئيسياً في تأسيس الرؤى المعرفية الإدراكية في "اللغة وقضاياها"؛ وقد لاحظ محيي الدين محسب مؤلف هذا الكتاب أن "الملاحظة العامة التي تسم هذه المراجعة هي انها تقوم بمهمة مزدوجة: نقض النموذج السلوكي في معالجة اللغة، وبناء النموذج التوليدي بوصفه بديلاً أدقَّ للمعالجة". (ص145)

ثم يعرض المؤلف بنية هذه المراجعة عرضاً تفصيلياً، فقد جاءت في أحد عشر قسماً، يمثلها الشكل التالي: (145- 146)

القسم	موضوعه
الأول	عرض فرضيات سكنر المنهجية، وتحديد نقاط قصورها.
الثاني	معالجة مفهوم "السياق التجريبي" الذي تستمد منه مفاهيم سكنر تعريفاتها.
الثالث والرابع	معالجة المفاهيم الأساسية الثلاثة التي انطلق منها سكنر وهي: المثير، والاستجابة، والتعزيز.
الخامس	معالجة المكانة العلمية للزعم الأساسي الذي استمِدَّ من سياق المعمل وليس الواقع الفعلي، أي قياس سلوك الحيوانات وتعميمها على الإنسان.
السادس إلى العاشر	معالجة ما أسماه تشومسكي" الآليات الوصفية الجديدة التي طورها سكنر- خصيصاً_ لوصف السلوك اللفظي.
الحادي عشر	فَحْص بعض السبل التي من الممكن أن يلعب من خلالها مزيد من العمل اللساني دوره في توضيح بعض هذه المشكلات التي عرضت لها المراجعة.

ويمكن القول إن انتقادات تشومسكي لِ (سكنر) تمثلت في النقاط الأربع التالية : (ص146 - 148)

1. إن المصطلحات والمفاهيم التي يستخدمها السلوكيون فضفاضة إلى حد يجعلها مجردة من أي محتوى إمبريقي (تجريبي)، ذلك أنهم أهملوا منزلة العقل ودوره في تمييز الإنسان من الحيوان، ولذلك فإن التدقيق في مفهوم "**التعلم بالمحاكاة**" لا يصمد أمام تفسير آليات اكتساب اللغة، ولاسيما ما يتعلق بالمعاني الحسية.

2. إنه ليس بمقدور السلوكية أنْ تُفَسِّر كثيراً من خصائص اللغة الجوهرية، ومن ذلك: الغموض التركيبي، والعلاقات النحوية، والحـــذف والترادف، وإبداع جمل جديدة.

3. إن القوانين التي تحكم السلوك اللغوي تختلف عن القوانين التي تحكم أنواع السلوك الأخرى، لأن السلوك اللغوي بالغ التعقيد إلى حَدّ يحتاج معه إلى نظرية مستقلة تغاير نظرية التعلم العامة التي أرساها السلوكيون، ويظهر أن البديل المقترح هنا هو القول بالقدرات اللغوية الفطرية.

4. إن نظرية (المثير/ الاستجابة) تعاني من الوقوع في دور الاستدلال، فإذا كان السلوكيون يفسرون (الاستجابة) بـ (المثير) فإن الواقع يشهد بأننا لا نستطيع تحديد المثير إلاّ بحصولنا أولاً على الاستجابة.

اللسانيات النفسية والنحو التوليدي: ويتألف هذا المبحث من مدخلين رئيسين هما: تعريف موضوع اللسانيات النفسية، والثاني اختبار بعض المفاهيم التوليدية من منظور اللسانيات النفسية.

أما في المدخل الأول فيتناول المؤلف عددا من آراء اللسانيين في مفهوم اللسانيات النفسية وموضوعها، حيث يورد آراء جون ليونز، وجوديث جرين، وديفيد كارول، ودان سلوبن، وبيت كوردر، وهانز هورمان، وجين آيتشيسون. وهي آراء تتفق على أن اللسانيات النفسية تتجاوز علم النفس في دراسة اللغة، من حيث إنها تسعى إلى دراسة العوامل النفسية والعقلية التي تتحكم في اللغة إنتاجاً واستقبالاً

وإدراكاً وفهماً، وهم يعزون هذا التحول في موضوع الدراسة إلى رؤى تشومسكي الثورية.

وينهي المؤلف هذا المدخل بسؤال جوهري في اللسانيات النفسية، وهو سؤال يتجاوز التنظير إلى البحث التطبيقي، إنه: **إلى أي مدى استطاعت النظرية اللسانية أن تكون نموذجاً هادياً لمسار اللسانيات النفسية؟ وبمعنى آخر: ما مدى مصداقية المفاهيم التي طرحها تشومسكي لتفسير المعرفة اللغوية على ضوء التحقق التجريبي الذي أنجزه اللسانيون النفسيون؟** (ص154)

وتمهيداً للإجابة عن هذا السؤال ينتقل محيي الدين محسب إلى المدخل الثاني، ليعرض عدداً من التجارب النفسية والعقلية التي أجريت لاختبار مفاهيم تشومسكي، أما المفاهيم التي اختبرت في الغرب، فهي:

الموضوع	الاختبار
دلائل على فطرية اللغة	أورد عدداً من التجارب التي قامت على مراقبة أداء طفلين مختلفين في فترة محددة، وانتهت هذه التجارب إلى تقرير، بعد دراسة لغة الطفلين، أن عامل التقليد والمحاكاة لا يصمد أمام التجربة، وأنه لابد من وجود عامل فطري عقلي يفسر هذا الاكتساب وآلياته. (155- 159)
مفهوم البنية العميقة	وهذه الاختبارات ثلاثة أنواع: 1- تجارب الاستدعاء، وتعني أن يستدعي الشخص جملة أعطيت له بتقديم كلمة من الجملة. 2- تجارب النقرة الصوتية، وتهدف إلى اختبار ما إذا كان الشخص يكتشف ما يشبه " البنية العميقة" عندما يفك شيفرة الجملة. 3- تجارب الإكمال، تقديم جملة ناقصة يطلب من المختبرين إكمالها، على أن تكون هذه الجمل موزعة بين

	جمل ملبسة وجمل واضحة.
مفهوم التحويل	والقصد هنا اختبار السؤال التالي: ما طبيعة العلاقة بين العمليات النحوية التي يصفها التوليديون بخصوص تكوين الجمل والعمليات النفسية التي يتم بها إنتاج الجمل؟ أجري عدد من التجارب للإجابة عن هذا السؤال، ويورد المؤلف خلاصة رأي آيتشيسون في هذه التجارب ونتائجها بالقول التالي: " إن النحو التحويلي ليس نموذجاً لإنتاج الكلام وفهمه، وان التعقيد الاشتقاقي – مقيساً بحدود التحويلات_ لا يرتبط بتعقيد المعالجة الذهنية؛ فالجملة المعقدة تحويلياً غالباً ما تكون أكثر بساطة في الإنتاج والفهم من تلك الأبسط تحويلياً..... ومن الواضح أن تشومسكي كان محقاً عندما رفض وجود علاقة مباشرة بين معرفة اللغة _كما صيغت في النحو التحويلي_ واستعمال اللغة".(ص172)

أما خاتمة الكتاب فإنها تعيد تأكيد وجهة النظر السائدة في اللسانيات النفسية المعاصرة، وهي أن تشومسكي قد فتح أبواباً جديدة في دراسة العوامل النفسية والعقلية التي تثوي وراء إنتاج اللغة واستقبالها.

ملاحظات على الكتاب: لاشك أن هذا الكتاب إسهام جديد يضاف إلى إسهامات محيي الدين محسب في البحث اللساني الأصيل والمترجم، وقد أظهر العرض التفصيلي الذي قدمته مدى أهمية هذا الكتاب في الدرس اللساني النفسي، ولا شك عندي أنه يمثل إضافة نوعية للسانيات العربية، وقد فَصَّلْتُ أسباب ذلك في بداية العرض، على أنني أورد هنا بعض الملاحظات الإضافية:

- يزخر الكتاب بالمصطلحات اللسانية المتخصصة على تعدد مجالاتها، وأحسب أن المؤلف قد نجح نجاحاً ظاهراً في تجلية المفاهيم وتوضيحها للقارئ، وقد زاد من هذا البيان أنه كان يقرن المصطلح العربي بنظيره الإنجليزي.
- رغم أنَّ السَّمْت العام للكتاب يظهر ميل المؤلف لتشومسكي واللسانيات التحويلية، وهو ميل له مسوغاته العلمية، إلا أنه لا يتجاوز رؤى الآخرين، فلا تراه يتردد في إيراد انتقادات العلماء لتشومسكي ورؤاه المختلفة، وهذا جانب ينتسب إلى الموضوعية والتجرد في البحث العلمي.
- يتميز الكتاب، على ما أرى، بسهولة اللغة وسلامتها التركيبية والنحوية. وهما مطلبان عزيزان، وسلاسة العرض وتدرج الأفكار، وهو مطلب رئيس في أدبيات البحث اللساني بالعربية.
- أكثر الكتاب من الاستشهاد بالنصوص الضرورية في سياق الكتاب. وهي نصوص أحسب أن كثيراً منها نقل إلى العربية للمرة الأولى، وظاهر أن هذه الاستشهادات كانت في مواضعها المناسبة، ولم تكن استكثاراً أو سدى.
- لعل أهم مأخذ على المؤلف أنه ترجم أسماء بعض الكتب ترجمة جديدة مع أن هذه الكتب قد ترجمت وذاع صيتها بأسماء مختلفة، وأقصد هنا على التعيين كتابَي تشومسكي:

- SYNTACTIC STRUCTURES
-Aspects of the THEORY OF SYNTAX

فقد ترجم محسب الكتاب الأول بـ (**البنيات التركيبية**) علماً أن يوئيل يوسف عزيز ترجمه إلى العربية بعنوان: **البنى النحوية**[14]. أما الكتاب الثاني فقد ترجمه بعنوان: **جوانب من نظرية التركيب**. وكان مرتضى جواد باقر قد ترجمه إلى العربية بعنوان : **جوانب من نظرية النحو**[15].

الهوامش:

1- لمزيد من التفصيل في علاقة اللسانيات بوجوه المعرفة الأخرى، انظر: وليد العناتي: اللسانيات والحياة... وجوه من الانتفاع بالمعرفة اللسانية، مجلة : اللسانيات واللغة العربية، المجلد الرابع، 2007، وأيضًا: مازن الوعر، دراسات لسانية تطبيقية.

2- جرى العرف اللساني على التفريق بين تعلم اللغة واكتسابها من نواحٍ متعددة أهمها أن الاكتساب عملية لا واعية واما التعلم فهي عملية واعية ومقصودة. تفاصيل إضافية في كتاب وليد العناتي: اللسانيات التطبقية وتعليم العربية لغير الناطقين بها، ص23-24.

3- وحصيلة هذه العناصر هي ما سماه (دل هايمز) الكفاية التواصلية.... أو ما عرفته العرب بـــ "لكل مقام مقال"... أو كما عرفوا البلاغة بأنها "مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته".

4- تفاصيل وافية عن هذا الموضوع في كتاب مايكل كوربااليس، نشأة اللغة، منشورات جامعة برنستون، 2002. ترجمة: محمود ماجد جابر، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت، العدد 325، مارس 2006.

5- وقد ناقش ابن جنّيّ هذه النظريات في باب "في أصل اللغة أإلهام هي أم اصطلاح" من كتاب الخصائص.

6- تفاصيل وافية عن هذا الموضوع في كتاب مايكل كوربااليس، نشأة اللغة.

8- لم يسمِّه المؤلف "الفصل الأول" ؛ إنما هي تسميتي؛ على ما تعارف البحث العلمي.

9- أي "العالميات اللغوية" أو "النحو الكوني/ العالمي" حسب اصطلاحات تشومسكي.

10- وقد كنت ممن يؤمنون بالقول بثانوية الوظائف النطقية، على أنني تحولت عنها عند قراءة هذا الكتاب!

11- تفاصيل وافية عن هذه الإجراءات، ص: 141-142 من الكتاب المعروض.

14- البنى النحوية، ترجمة يوئيل يوسف عزيز، سلسلة المائة كتاب، دائرة الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، الطبعة الأولى، بغداد، 1987.

12- جوانب من نظرية النحو، ترجمة مرتضى جواد باقر، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة البصرة، 1983.